وقوله : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] وهذه ليست تحية ؛ لأنك تُحيى مَنْ كان مُتبعاً للهدى ، وتدعو له بالسلام ، فإنْ لم يكُنْ كذلك فهى نهاية للكلام .

لذلك كان يكتبها رسول الله ﷺ فى كتبه إلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى هرقل عظيم الروم ، يقول : « اسلم تسلم ، يؤتكَ الله أجرك مرتين ، فإنْ توليت فإنما عليك إثم الاريسيين[1] والسلامَ على مَنِ اتبع الهدى »[2] .

قال موسى وهارون لفرعون :

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

فأعطاه هنا القضية النهائية : جاءنا فى الوحى أن مَنْ كذّب وتولّى فله العذاب ، ومعنى ﴿ أُوحِيَ إِلَيْنَا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه] أى : من ربك .

فلما سمع فرعون هذه المقولة أحب أنْ يدخل معهما فى متاهات يشغلهم بها ، ويطيل الجدل ليُرتِّب أفكاره ، وينظر ما يقول :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) اختلفوا فى المراد بالاريسيين على أقوال ، أصحها وأشهرها أنهم الأكارون أى الفلاحون والزراعون ، ومعناه : إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ، وهذا هو القول الصحيح . شرح النووى لصحيح مسلم .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٧) كتاب بدء الوحى ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير فى حديث طويل من حديث ابن عباس فى ذكر كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم .

ووجَّه الخطاب إلى الرئيس الأصلى فى هذه المهمة ، وهو موسى عليه السلام[1] .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾

معنى ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه] أى : كل ما فى الوجود ، خلقه الله لمهمة ، فجاء خَلْقه مناسبا للمهمة التى خُلق لها ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه] أى : دلّ كل شىء على القيام بمهمته ويسَّره لها .

والحق سبحانه أعطى كل شىء (خَلْقَهُ) الخَلْق يُطلَق ، ويُراد به المخلوق ، فالمخلوق شىء لا بُدَّ له من مادة ، لا بُدَّ أن يكون له صورة وشكل ، له لون ورائحة ، له عناصر ليؤدى مهمته .

فإذا أراد الله سبحانه خَلْق شىء يقْدر له كل هذه الأشياء فأمدَّ العين كى تبصر ، والأنف كى يشم ، واللِّسان كى يتذوق ، ثم هدى كل شىء إلى الأمر المراد به لتمام مهمته ، بدون أى تدخّل فيه من أحد .

وإذا كان الإنسان ، وهو المقدور للقادر الأعلى يستطيع أن يصنع مثلاً القنبلة الزمنية ، ويضبطها على وقت ، فتؤدى مهمتها بعد ذلك تلقائيا دون اتصال الصانع بها .

فالحقّ سبحانه خلق كل شىء وأقدره على أنْ يُؤدِّى مهمته على الوجه الأكمل تادية تلقائية غريزية ، فالحيوانات التى نتهمها بالغباء ،

---

(١) وقد يكون فرعون قد طلب الكلام من موسى لأنه يعلم أن موسى ليس فصيح اللسان ولا يكاد يُفهم منه كلام بسبب العقدة التى فى لسانه ، ولذلك قال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف] .

ونقول عنها « بهائم » هى فى الحقيقة ليست كذلك ، وقد أعطانا الحق - سبحانه وتعالى - صورة لها فى مسألة الغراب الذى بعثه الله ليُعلِّم ولد آدم كيف يوارى سوءة أخيه كما قال سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

فكيف صنع الغراب هذا الصنيع ؟ صنعه بالغريزة التى جعلها الله فيه ، ولو تأملتَ الحمار الذى يضربون به المثل فى الغباء حين تريده أنْ يتخطى (قناة) مثلاً ، تراه ينظر إليها ويُقدِّر مسافتها ، فإن استطاع أنْ يتخطاها قفز دون تردد ، وإنْ كانت فوق إمكانياته تراجع ، ولم يُقْدِم مهما ضربته أو أجبرته على تخطيها ، هذه هى الغريزة الفطْرية .

لذلك تجد المخلوقات غير المختارة لا تخطىء ؛ لأنها محكومة بالغريزة ، وليس لها عقل يدعو إلى هوىً ، وليس لها اختيار بين البدائل مثل العقل الإلكترونى الذى يعطيك ما أودعته فيه لا يزيد عليه ولا ينقص ، أما الإنسان فيمكن أنْ يُغيِّر الحقيقة ، ويُخفى ما تريده منه ، لأن له عقلاً يفاضل : قُلْ هذه ، ولا تقُلْ هذه ، وهذا ما ميَّز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات .

كذلك ، ترى الحيوان إذا شبع يمتنع عن الطعام ولا يمكن أن تؤكله عود برسيم واحد مهما حاولتَ ، إنما الإنسان صاحب العقل والهوى يقول لك : (أرها الألوان تريك الأركان) ، فلا مانع - بعد أن أكل حتى التخمة - من تذوُّق أصناف شتَّى من الحلوى والفاكهة وخلافه .

وفى هذه الآية يقول الحق سبحانه وتعالى أنه : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

خذ مثلاً الأذن ، وكيف هى محكمة التركيب مناسبة لتلقى الأصوات ، ففى الأذن من الخارج تجاعيد وتعاريج تتلقى الأصوات العالية ، فتُخفِّف من حدَّتها حتى تصل إلى الطبلة الرقيقة هادئة ، وإلاَّ خرقتها الأصوات وأصمّتها ، وكذلك جعلها الله لصدِّ الرياح حتى إذا هبت لم تجد الأذن هكذا عارية فتؤذيها .

وكذلك العَيْن ، كم بها من آيات لله ، فقد خلقها الله بقدر ، من هذه الآيات أن حرارتها إنْ زادت عن ١٢ درجة تفسد ، وأرنبة الأنف إنْ زادت عن ٩ درجات لا تؤدى مهمتها ، مع أن فى الجسم عضواً حرارته ٤٠ درجة هو الكبد ، والحرارة الكلية للإنسان ٣٧ درجة ، تكون ثابتة فى المناطق الباردة حيث الجليد كما هى فى المناطق الحارة ، لا ترتفع ولا تنخفض إلا لعلَّة أو آفة فى الجسم .

إذن : كل شىء فى الوجود خلقه الله بقدر وحكمة وكيفية لأداء مهمته ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى]

اللسان مثلاً جعل الله به حلَمات متعددة ، كل واحدة منها تتذوّق طَعْماً معيناً ، فواحدة للحلو ، وواحدة للمُرِّ ، وواحدة للحريف ، وهكذا ، وجميعها فى هذه المساحة الضيقة متجاورة ومتلاصقة بقَدْر دقيق ومُعْجز .

الأنف وما فيه من مادة مُخاطية عالقة لا تسيل منك ، وشعيرات دقيقة ، ذلك لكى يحدث لهواء الشهيق عملية تصفية وتكييف قبل أن يصل إلى الرئتين ؛ لذلك لا ينبغى أنْ نقصَّ الشعيرات التى بداخل الأنف ؛ لأن لها مهمة .

عضلة القلب وما تحتويه من أُذَيْن وبُطَيْن ، ومداخل للدم ،

ومخارج محكمة دقيقة تعمل ميكانيكياً ، ولا تتوقف ولا تتعطل لمدة ١٤٠ أو ١٢٠ سنة ، تعمل تلقائياً حتى وأنت نائم ، فأىّ آلة يمكن أنْ تُؤدِّى هذه المهمة ؟

والحق سبحانه وتعالى عندما أرسل موسى وهارون بآية دالة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أخْذ بنى إسرائيل ، وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية ، أما أصل مهمة موسى فكان : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه]

والحق سبحانه حين يعرض قضية الإيمان يعرضها مبدوءة بالدليل دليل البدء الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه] لأن فرعون الذى ادعى الألوهية لابُدَّ أن يكون له مألوهون ، وهم خَلْق مثله ، وهو يعتزّ بملكه وماله من أرض مصر ونيلها وخيراتها حتى قال :

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِي .. (٥١) ﴾ [الزخرف]

فأراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يرد عليه : ألَكَ شىء فى خَلْق هؤلاء المألوهين لك ؟

وما أشبهَ موقف فرعون أمام هذه الحجة بموقف النمروذ أمام نبى الله إبراهيم عليه السلام عندما قال له : ﴿ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

فلم يجد النمروذ إلا الجدل والسفسطة ، فلجأ إلى حيلة المفلسين ، وجاء برجلين فقال : أنا أحكم على هذا بالموت وأعفو عن هذا ؛ لذلك لما أحسَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ منه المراوغة والجدال نقله إلى مسألة لا يستطيع منها فكاكاً .

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ[1] الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

إذن : فـالردُّ إلى قضـيـة الخلق الأول دليل لا يمكن لأحـد ردُّه ، حتى فـرعون ذاته لم يدَّعِ أنه خلق شـيئاً ، إنمـا تجبّـر وتكبّر وادّعى الألوهيـة فقط عـلى مألوه لم يخلـقه ، ولم يخلق نفـسـه ، ولم يخلق الملْك الذى يعتز به .

ولما كان دليل الخلق الابتدائى هو الدليل المقنع ، لم يكن لفرعون ردٌّ عليه ؛ لذلك لما سـمع هذه المسألة ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ [طه] لم يستطع أنْ ينـقضَ هذا الدليل ، فأراد أنْ يُخرِج الحـوار من دليل الجد إلى مـسألة أخرى يهـرب إليها ، مـسألة فرعية لا قيمة لها :

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١)﴾

أى : مـا شأن الأمم السـابقة ؟ لكن مـا دَخْل القرون الأولى بمـا نتكلّم فـيـه ؟ كلمـة البـال : هو الـفكر ، نقـول : خطر ببـالى . أى : بفكرى ، ولا يأتى فى الفكر وبُؤْرة الشعور إلا الأمر المهم .

لكن ، سرعان ما أحسَّ موسى بمراوغـة فرعون ، ومحاولة الهرب من الموضوع الأساسى فسَدَّ عليه الباب .

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾

(١) بهت : دهش وتحيَّر . [القاموس القويم ٨٦/١] قـال ابن منظور فى [لسـان العرب - مادة : بهت] : « انقطع وسكت متحيراً عنها » .

فهذه المسألة ليست من اختصاصى ؛ لأن الذى يُسأل عن القرون الأولى هو الذى يُجازيها ، وينبغى أنْ يعلم حالها ، وما هى عليه من الإيمان أو الكفر ؛ ليُجازيها على ذلك ، إذن : هذا سؤال لا موضعَ له ، إنه مجرد هَزْلٍ ومهاترة وهروب ، فلا يعلم حال القرون الأولى إلا الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى سيُجازيها .

ومعنى ﴿فِي كِتَابٍ.. (٥٢)﴾ [طه] أى : سجّلها فى كتاب ، يطلع عليه الملائكة المدبرات أمراً ؛ ليمارسوا مهمتهم التى جعلهم الله لها ، وليس المقصود من الكتاب أن الله يطّلع عليه ويعلم ما فيه ؛ لأنه سبحانه ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾ [طه]

ثم أرجعه موسى إلى القضية الأولى قضية الخلق ، ولكن بصورة تفصيلية :

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾

مَهْداً : من التمهيد وتوطئة الشىء ليكون صالحاً لمهمته ، كما تفعل فى فراشك قبل أن تنام ، ومن ذلك يسمى فراش الطفل مَهْداً ؛ لأنك تُمهِّده له وتُسوِّيه ، وتزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقر فى مَهْده ويستريح .

ولا بُدَّ لك أنْ تقوم له بهذه المهمة ؛ لأنه يعيش بغريزتك أنت ، إلا أن تتنبه غرائزه لمثل هذه الأمور ، فيقوم بها بنفسه ؛ لذلك لزمك فى هذه الفترة رعايته وتربيته والعناية به .

فمعنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا .. (٥٣)﴾ [طه] أى : سوَّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها .

وليس معنى مهّدها جعلها مستوية ، إنما سوّاها لمهمتها ، وإلا ففى الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها ، فتسويتها تقتضى إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج أو الارتفاع أو الانخفاض .

فمثلاً فى الأرض المستوية نجد الطرق مستوية ومستقيمة ، أما فى المناطق الجبلية فهى مُتعرّجة مُلتوية ؛ لأنها لا تكون إلا كذلك ، ولها ميزة فى التوائها أنك لا تواجه الشمس لفترة طويلة ، بل تراوح بين مواجهة الشمس مرة والظل أخرى .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالخطّاف الذى نصنعه من الحديد ، فلو جعلناه مستقيماً ما أدّى مهمته ، إذن : فاستقامته فى كَوْنه مُعْوجاً فتقول : سويته ليؤدى مهمته ، ولو كان مستقيماً ما جذب الشىء المراد جَذْبه به .

إذن : نقول التسوية : جَعْل الشىء صالحاً لمهمته ، سواء أكان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأمْت[1] أو بالاستقامة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (٥٣)﴾ [طه] أى : طرقاً ممهدة تُوصّلكم إلى مهماتكم بسهولة .

سلك : بمعنى دخل ، وتأتى متعدية ، تقول : سلك فلان الطريق . وقال تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ[2] (٤٢)﴾ [المدثر] فالمخاطبون

---

(١) الأمْت : الاختلاف فى المكان ارتفاعاً وانخفاضاً . قال تعالى : ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] . أى : لا ترى فى الأرض يوم القيامة التواء ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً فى الارتفاع والانخفاض . [القاموس القويم ١/ ٣٠] .

(٢) قيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح ، والاسم عربى من قولهم : سقرته الشمس . أى : أذابته . [لسان العرب ـ مادة : سقر] .

مَسْلُوكون فى سقر يعنى : داخلون ، وقال : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ .. ㊲ ﴾ [القصص] أى : أدْخِلْها .

فتعديها إلى المفعول الداخل أو للمدخول فيه ، فقوله : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. ㊳ ﴾ [طه] متعدية للمدخول فيه أى : عديت المخاطب إلى المدخول فيه ، فأنتم دخلتم ، والسُّبل مدخول فيه . إذن : المفعول مرة يكون المسلوك ، ومرة يكون المسلوك فيه .

وحينما تسير فى الطرق الصحراوية تجدها مختلفة على قَدْر طاقة السير فيها ، فمنها الضّيق على قَدْر القدم للشخص الواحد ، ومنها المتسع الذى تسير فيه الجمال المحمّلة أو السيارات ، فسلك لكم طرقاً مختلفة ومتنوعة على قَدْر المهمة التى تؤدونها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ㊳ ﴾ [طه]

وهذه أيضاً من مسالة الخَلْق التى لا يدعيها أحد ؛ لأنها دَعْوى مردودة على مدعيها ، فأنت يا مَنْ تدّعى الألوهية أخرجْ لنا شيئاً من ذلك ، أرِنَا نوعاً من النبات فلن يقدر ، وبذلك لزمتْه الحجة .

كما أن إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن عندما يخرج النبات قد يكون لنا عمل مثل الحَرْث والبَذْر والسَّقْى وخلافه ، لكن هذا العمل مستمد من الأسباب التى خلقها الله لك ؛ لذلك لما تكلم عن الماء قال (أَنْزَلَ) فلا دَخْل لأحد فيه ، ولما تكلم عن إخراج النبات قال (أَخْرَجْنَا) لأنه تتكاتف فيه صفات كثيرة ، تساعد فى عملية إخراجه ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يحترم عملك السَّببى ويُقدِّره .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ㊸ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ

الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة] فاثبت لهم عملاً ، واحترم مجهودهم ، إنما لما حرثتم من أين لكم بالبذور ؟ فإذا ما تتبعت سلْسلة البذور القبلية لانتهتْ بك إلى نبات لا قَبْلَ له . كما لو تتبعتَ سلسلة الإنسان لوجدتها تنتهي إلى أب .. لا أب له إلا مَنْ خلقه .

وأنت بعد أن ألقيتَ البذرة في الأرض وسقيْتها ، ألَكَ حيلة في إنباتها ونُموِّها يوماً بعد يوم ؟ أمسكْتَ بها وجذبْتها لتنمو ؟ أم أنها قدرة القادر ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الواقعة] ، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها .

كما حدث مع قارون حينما قال عن نعمة الله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر]

فما دام الأمر كذلك فحافظ عليه يا قارون بما عندك من العلم ، فلما خسف الله به وبداره الأرض دَلَّ ذلك على كذبه في مقولته .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الواقعة] أنه مؤكد باللام ، لماذا ؟ لأن لك شبهة عمل في مسألة الزرع ، قد تُطمعك وتجعلك مُتردداً في القبول . إنما حينما تكلم عن الماء قال :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة]

هكذا بدون توكيد ؛ لأنها مسألة لا يدَّعيها أحد لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] لم يقل : نباتاً فقط . بل أزواجاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن تتكاثر الأشياء ، والتكاثر لا بُدَّ له من زوجين : ذكر وأنثى . وكما أن الإنسان يتكاثر ، كذلك

باقى المخلوقات ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الأرض وقدَّر فيها أقـواتهـا ، ولا بُـدَّ لهـذه الأقـوات أن تكفى كل مَنْ يعـيش على هذه الأرض .

فإذا ضاقت الأرض ، ولم تُخرِج ما يكفينا ، وجاع الناس ، فلنعلم أن التقصـير منّا نحن البشـر فى استصلاح الأرض وزراعتـها ؛ لذلك حينما حدث عندنا ضيق فى الغذاء خـرجنا إلى الصحراء نستصلحها ، وقد بدأت الآن تُؤتى ثمـارها ونرى خيرها ، والآن عـرفنا أننا كنا فى غفلة طوال المـدة السابقـة ، فتكاثرنا ولم نُكثِّر مـا حولنا من الرقـعة الزراعية .

والذكر والأنثى ليسا فى النبات فحسْب ، بل فى كل ما خلق الله : ﴿ سبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

فالزوجية فى كل شىء ، علِمته أو لم تعلمه ، حتى فى الجمادات ، هناك السالب والموجب والالكترونات والأيونات فى الذرة ، وهكذا كلما تكاثر البشر تكاثر العطاء .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) ﴾ [طه] شتى مـثل : مرضى جمع مـريض فشـتى جـمع شتـيت . يعنى أشـياء كـثيرة مـختلفـة ومـتـفـرقـة ، ليـست فى الأنواع فـقط ، بل فى النـوع الواحـد هناك اختـلاف .

فلو ذهبت مثـلاً إلى سوق التـمور فى مدينة رسـول الله ﷺ تجد أنواعاً كثيرة ، مختلفة الأشكال والطُّعوم والأحجام ، كلها تحت مُسمّى واحد هو : التمر . وهكذا لو تأملتَ باقى الأنواع من المزروعات .

ثم يذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ العلَّة فى إخراج النبات :

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾

(كُلُوا) : تدل على أن الخالق عز وجل خلق الحياة ، وخلق مقومات الحياة ، وأولها القوت من الطعام والشراب ، وهذه المقوّمات تناسبت فيها الملكية مع الأهمية ، فالقوت أولاً ، ثم الماء ، ثم الهواء .

فأنت تحتاج الطعام وتستطيع أن تصبر عليه شهراً على قَدْر ما يختزن فى جسمك من شحم ولحم ، يتغذّى منها الجسم فى حالة فقد الطعام ؛ لأنك حين تأكل تستهلك جزءاً من الطعام فى حركتك ، ثم يُختزن الباقى فى صورة دهون هى مخزن الغذاء فى الجسم ، فإذا ما نفد الدُّهْن امتصَّ الجسم غذاءه من اللحم ، ثم من العظم ، فهو آخر مخازن الغذاء فى جسم الإنسان .

لذلك لما أراد سيدنا زكريا عليه السلام أن يعبر عن ضعفه ، قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم]

لذلك تجد كثيراً ما يُتملَّك الغذاء ؛ لأنك تصبر عليه مدة طويلة تُمكِّنك من الاحتيال فى طلبه ، أو تُمكِّن غيرك من مساعدتك حين يعلم أنكِ محصور جوعان .

أما الماء فلا تصبر عليه أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة ؛ لذلك قليلاً ما يُملَّك الماء لأحد .

أما الهواء فلا تصبر عليه أكثر من نفَس واحد ، فمن رحمة الله بعباده ألاَّ يُملَّك الهواء لأحد ، وإلاَّ لو غضب عليك صاحب الهواء ،

فمنعه عنك لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك ، وليس هناك وقت تحتال فى طلبه .

وقوله تعالى : ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ.. ﴿٥٤﴾﴾ [طه] لأنها تحتاج أيضاً إلى القُوت ، وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات] ثم يصبّ الجميع فى أن يكون متاعاً للإنسان الذى سخَّر الله له كل هذا الكون .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه]

آيات : عجائب . والنُّهَى : جمع نُهية مثل قُرَبْ جمع : قُرْبة . والنُّهَى : العقول ، وقد سمَّاها الله تعالى أيضاً الألباب ، وبها تتم عملية التدبير فى الاختيارات .

والعقل من العقال الذى تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلَق لك كى تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك ، وتحكمها على قَدْر مهمتها فى حياتك ، فغريزة الأكل مثلاً لبقاء الحياة ، وعلى قَدْر طاقة الجسم ، فإنْ زادت كانت شراهة مفسدة .

وقد جُعل حُبُّ الاستطلاع للنظر فى الكون وكَشْف أسراره وآيات الله فيه ، فلا ينبغى أنْ تتعدّى ذلك ، فتتجسس على خَلْق الله .

وسُمِّيَتْ العقول كذلك النُّهَى ، لأنها تنهى عن مثل هذه الشطحات . إذن : فلا بد للإنسان من عقل يعقل غرائزه ، حتى لا تتعدى المهمة التى جُعلَتْ لها ، ويُوقفها عند حَدِّها المطلوب منها ، وإلا انطلقتْ وعربدتْ فى الكون ، لاَ بُدَّ للإنسان من نُهية تنهاه وتقول له : لا لشهوات النفس وأهوائها ، وإلاَّ فكيف تُطلق العنان لشهواتك ، ولست